فاس عاصمة الأدارســـة

الأستاذ مصطفى بعيو الطرابلسى

(بقية ما نشر فى العدد الماضى)

بدأ إدريس فى إنشاء هذه المدينة ببناء السور أولا وتشجيعاً للعمال لإنجاز مشروعه اشترك بنفسه معهم . ويمكننا أن نستدل من وصف كتاب « زهرة الآس فى بناء مدينة فاس » (١) لأبى الحسن الجزنائى الكيفية ببناء السور أن المدينة كانت على شكل دائرى وأن أبوابها قد تعددت حتى زادت عن السبعة . نزل إدريس وحاشيته فى المكان الذى عرف فيما بعد بعدوة الأندلس بعد أن خصص مكاناً لإقامة المرضى شرقى المدينة حتى تساعد الرياح الغربية على إبعاد رائحتهم ، وحتى يكون تصرفهم من الماء بعد خروجه من المدينة فلا يصل ضررهم إلى سكانها . وكما هى العادة المتبعة فى بناء المدن الإسلامية الجديدة شرع إدريس فى بناء مسجد الشرفا فى عدوة الأندلسيين .

واتبع إدريس خطة حكيمة لتعمير عاصمته الجديدة ذلك أنه نادى فى الناس بأن كل من بنى موضعاً او اغترسه قبل بناء السور فهو له هبة لله فتبارى الناس فى ذلك فأكثروا من العمارة ونوعوا فى الغرس حتى أصبحت المحاصيل وفيرة مختلفة رخيصة أسعارها مما ساعد على ازدياد عمرانها ما كان يقع فى ذلك الوقت من حوادث فى الأندلس بإبان إمارة الحكم بن هشام مما ترتب عليه هجرة بعض الأندلسيين إلى فاس على أثر ثورة أهل الربض وما أنزله بهم من عقاب صارم .

خصص إدريس لهؤلاء المهاجرين حياً خاصاً عرف فيما بعد بعدوة الأندلسيين وهو إلى الشرق من المدينة وأصبح ينزل فيه كل من ترك الأندلس واتخذ المغرب وجهته فكأنه فرع الشجرة قد نبتت فى الأندلس ؛ كما نزل الوافدين عليه من القيروان بحى خاص بهم يعرف فيما بعد بعدوة القرويين فكأن مدينة فاس عبارة عن حيين اختص كل منهما بفريق خاص .

وكما هو اللاحظ فى نشأة المدن الجديدة فإن فاس سرعان ما ازدهرت وأصبحت محط رحال كثير من العلماء والفقهاء حتى ينالوا حظ التقرب من رجال هذه الدولة الجديدة فاشتهر اسمها فى الآفاق وأصبحت مقصد مسلمى مراكش منذ نشأتها وعلى كل حال إليها يرجع الفضل فى تخليد ذكرى دولة الأدارسة ولولاها ما انتبه إليهم المؤرخون .

ومن محاسن هذه المدينة موقعها الفريد ؛ فهى بعيدة عن الصحراء الجدبة وعن البحار وأخطارها ولكنها تتصل بهما بطريق غير مباشر . تتصل بالصحراء بطريق برى وبالبحر بنهر سبوا . ثم إن هذا النهر أيضاً يشقها نصفين وتتشعب جداوله بين دورها وأنحائها ثم يخرج منها وقد حمل أقذارها وبعد أن يدير رحيها . ولهذا النهر كذلك ميزة خاصة فى مياهه التى تساعد على شفاء كثير من الأمراض وأخيراً يجب ألا ننسى أنه إلى الغرب منها توجد كثير من مقاطع الأحجار وكميات وافرة من الكلس تساعد على نشاط حركة البناء .

وبعد أن أتم إدريس بناء مدينته أخذ يخرج لغزو ما جاوره من بلاد على فترات متقطعة منتظمة ولكن المنية لم تمهله إذ مات فى ربيعان شبابه قيل مسموماً وقيل إنه شرق بحبة عنب فمات .

واختلفت الروايات فى مكان دفنه فبعضها يقول فى مسجد الشرفا بفاس وبعضها يقول إنه دفن بجوار أبيه فى وليلى . وبموته أخذت دولة الأدارسة فى الاضمحلال ذلك أن أولاده قد تقاسموا البلاد مما ترتب عليه وقوع الشحناء والتنافس بينهم ومن ثم إلى انقسام الدولة وتفككها . ومما زاد الطين بلة تلك الأخطار التى كانت تحدق بالدولة من الخارج .

فالفاطميون ومن قبلهم الأغالبة فى أفريقية والمغرب الأوسط والأمويون فى الأندلس وكل يعمل على محوها . وهكذا ترتب على هذا الاضمحلال السياسى اضمحلال حالة مدينة فاس فأفل نجمها بعد أن سطع فترة من الزمن وأصبح لا يقصدها إلا من أراد التبرك بزيارة بعض قبور الأدارسة لذلك لا نعجب إذا رأينا من الأمثلة المشهورة « فاس بلد بلا ناس » (١)

أما لماذا اختار إدريس الثانى هذه التسمية « فاس » لمدينته

(١) تولى نشر هذا الكتاب الأستاذ alfred Bel مدير مدرسة حسان بالجزائر باللغة العربية والفرنسية غير أن الطبعة الفرنسية قد قدم لها بترجمة لمؤلف هذا الكتاب وتحليل شخصيته وهو بمكتبة جامعة فؤاد الأول (٣٨٣٠ ث) .

(١) معجم البلدان ط دار السعادة ص ٣٣٠ : لياقوت

فقد تعددت فى ذلك الروايات وإن اختلف بعضها فى التفاصيل فإن أغلبها قد أجمعت على وجود مدينة قديمة قبلها قد طمرت معالمها وامحت آثارها حتى جاء إدريس الثانى فجددها فى شكل مدينة فاس . فقيل [1] إن هذا الاسم قد اختاره لها إدريس عقب ذهابه لرؤية المكان الذى تم اختياره إذ صادفه رجل اسمه «فارس» وربما لتعوض فى كلام هـذا الرجل فهم إدريس اسمه على أنه « فاس » فسمى المدينة باسمه . ولـكن هـذه الروايات ضعيفة ، ولا يمكن الأخذ بها . ويرى صاحب الدرر السنية [2] ويشاركه فى هذه الرواية الجزنائى [3] أن أحسن ما يمكن أن نعلل به هذه التسمية أن الإمام إدريس عندما خرج لمعاينة المكان الذى اختير لمشروعه مر به شيخ كبير من رهبان النصارى قد زاد عمره على المائة والخمسين سنة كان مترهبناً فى صومعة قريبة من تلك الجهة ، فوقف على مولانا إدريس وسلم عليه ثم قال أيها الأمير ما تريد أن تصنع بين هذين الجبلين . قال أريد أن أختط مدينة هنا يعبد الله تعالى بها ، ويتلى بها كتابه ، وتقام بها حدوده . قال أيها الأمير إن لك عندى بشرى . قال : وما هى أيها الراهب ؟ قال : إنه أخبرنى راهب كان قبلى فى هذا الدير له منذ توفى مائة سنة أنه وجد فى كتاب علمه أنه كان بهذا الموضع مدينة تسمى « ساف » خربت منذ ألف سنة وأنه يجددها ويحيى آثارها ويقيم دارسها رجل من آل بيت النبوة يسمى إدريس ، ويكون له شأن عظيم وقدر جسيم لا يزال دين الإسلام قائماً بها إلى يوم القيامة . فقال مولانا إدريس : الحمد لله أنا إدريس وأنا من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا بانيها إن شاء الله تعالى . فلما بناها قيل له : كيف تسميها ؟ قال : باسم المدينة التى كانت قبلها « ساف » ولـكن أقلب اسمها الأول ونسميها بقلبية وسماها «فاس» . وهذه الرواية بتفاصيلها ضعيفة للأخذ بها لتعارض بعضها مع الحقائق العامة المتفق عليها ولـكن فى الغالب أنه كانت هناك مدينة قد اندثرت معالمها وهذا ما دفع الجزنائى إلى القول « ويدل على ذلك ما رواه البرنس أن رجلا من اليهود احتفر أساس دار من قنطرة عزيلة من المدينة المذكورة ... فوجد فى الأساس قطعة رخام على صورة جارية منقوش على صدرها بالخط الهندى هـذا موضع حمام عمر ألف سنة ثم خرب فأقيم موضعه بيعة العبادة » [1]

ويذكر لنا الجزنائى رواية أخرى ينقلها عن صاحب الاستبصار وهى أن الإمام إدريس عندما شرع فى بناء مدينته كان يعمل فيها بيده كما سبق ذكره فصنع له فاس من ذهب وفضة فكان الإمام إدريس يمسكه بيده ويبدأ به الحفر ويختط به الأساسات للفعلة فكثر ذلك على ألسنتهم طوال مدة البناء فكان الفعلة يقولون هاتوا الفاس ، خذوا الفاس ، احفروا بالفاس . فسميت مدينة فاس . وربما كانت هذه الرواية أقرب إلى الصحة على الرغم من أن الجزنائى لا يأخذ بها ولا يؤيدها بل يعارضها لأنه يرى فيها ما يتنافى مع تمسك الإمام ادريس بعقيدته الإسلامية التى تتنافى مع استعمال الذهب بهذا الشكل وعلى أى حال فإن استعمال الذهب أو الفضة بهذا الشكل ما زالو معمولا به حتى يومنا هذا عندما يقوم بعض الملوك أو من يمثلهم فى الاحتفال بوضع الحجر الأساسى لأية منشأة جديدة ؛ لذلك نراه ينتقل إلى ذكر رواية أخرى مؤداها أنه لما بدأ العمال بحفر أساسها من ناحية الجنوب وجدوا فاساً كبيراً طوله أربعة أشبار وسعته شبر واحد وزنته ستون رطلا من عمل الأوائل فسميت المدينة به .

بقيت كلمة صغيرة عن جامع القرويين ذلك أنه لما كثر على مدينة فاس الواردون أيام يحيى بن محمد بن إدريس كان ممن قدم عليها من القيروان محمد بن عبد الله الفهرى القروى ونزل كما هو المتبع بعدوة القرويين مع أهل بلده . وعند وفاته ترك ابنتين قد تحصل لهما ميراث كثير رغبتا أن تصرفاه فى وجوه البر فلما علمتا أن الناس فى حاجة لبناء جامع كبير فى كل عدوة من فاس لضيق الجامعين القديمين بالناس شرعت إحداهما فى بناء جامع عدوة القرويين أما الأخرى فقد تكفلت ببناء جامع الأندلس . وفى سنة ٣٠٧ هـ ازيلت الخطبة من جامع الشرفا لصغره وحل محله فى ذلك جامع القرويين لاتساعه وكبره والذى أصبح ملتقى العلماء والطلاب لسماع بعض الدروس الدينية فيه وما زالت حلقاته عامرة إلى يومنا هذا .

مصطفى بصير الطرابلسى

(١) معجم البلدان ط دار السعادة ص ٢٣٠ : لياقوت .
(٢) ص ٧٣ .
(٣) ص ١٨ .

(١) ص ١٨ .